التناسب الزمنى بين الحركات القصيرة والطويلة

دراسة صوتية معملية فى القافية العربية

د. سعد مصلوح ــ بكلية دار العلوم ــ جامعة القاهرة

مدخل لتحديد المشكلة :

ليس فى التراث اللغوي العربى ما يوحي بأن أسلافنا من نحاة العرب ولغوييهم كانوا على معرفة بمفهوم المقطع Syllable على النحو الذى نجده مبسوطا فى مصنفات الدرس الصوتى الحديث[١] . غير أنهم استطاعوا فى بعض ماكتبوا أن يلتقطوا بعض العناصر التى تدخل فى تشكيل هذا المفهوم : كتصنيف الأصوات اللغوية الى صوامت وحركات على نحو يناظر تقريبا تفرقتنا بين ما يسميه الغربيون Consonant Vowel[٢] وتصنيف الحركات (بالمفهوم المعاصر Vowels) ، إلى قصار وطوال (عرفت في مصنفاتهم باسم الحركات وحروف المد)[٣] . أما النظرية العروضية الخليلية فقد ارتضت تصنيف تتابعات الأصوات اللغوية في البيت إلى ما سموه بالساكن المتحرك . حيث يتسع مفهوم الساكن عندهم ليشمل الصامت غير المتبوع بحركة بالاضافة إلى الحركة الطويلة (أي حرف المد)[٤] .

وتجنبا لما قد ينشأ عن استخدام المصطلح التراثى ــ سواء فى صورته اللغوية أو العروضية ــ من غموض نؤثر أن نستخدم الثنائية الاصطلاحية (صامت حركة) كمقابل عربى للثنائية الشائعة فى الدرس اللغوى الحديث Consonant Vowel ومعلوم بالضرورة أن مفهوم الحركة هنا سيكون شاملا لقصار الحركات العربية (الفتحة والضمة والكسرة) وطوالها (ألف المد وواوه ويائه) .

ونهدف فى هذا البحث الى تقديم معالجة صوتية معملية لمشكلة التناسب الزمنى بين الحركات القصيرة والطويلة مركزين دراستنا على نمط واحد من أنماط القافية العربية وهى القافية المغلقة (أى التى تنتهى بصامت غير متبوع بحركة) .

ويمكن أن نحصر من مصنفات العروضيين الأشكال المختلفة التي تتخذها القافية المغلقة في[٥] :

(أ) القافية المردفة : وهي ما كان حرف الروي المقيد فيها مسبوقا بحركة طويلة (ح ح ص) .

(ب) القافية المؤسسة : وهي ما كان المقطع المحتوى على حرف الروي المقيد فيها من النوع (ص ح ص) مسبوقا بحركة طويلة بحيث تتخذ القافية الشكل (ح ح + ص ح ص) .

(جـ) القافية المجردة : وهي ما سبق حرف الروي المقيد فيها بحركة قصيرة اصطلح على تسميتها بالتوجيه (ح ص) .

وقد اختلف أهل العروض حول الشكل الثالث في جواز تقارض الحركات القصيرة (أي تبادلها) في قافية القصيدة الواحدة على ثلاثة أقوال يلخصها الدمنهورى في حاشيته على متن الكافي فيقول : « أحدهما للأخفش وهو أنه ليس بعيب مطلقا ، وثانيهما للخليل وهو جواز الضمة مع الكسرة وامتناع الفتحة مع أحدهما . وثالثها لكراع وهو أن الجمع بين الضمة والفتحة جائز ولا تأتى الكسرة مع أحدهما[٦] .

غير أن الشعراء لم يلتزموا بهذه القاعدة بل أعطوا أنفسهم حرية تقارض الحركات القصار . أما الحركات الطويلة في قافية القصيدة الواحدة فقد أجمع العروضيون والشعراء بشأنها على أمرين : أولهما امتناع التقارض بين الحركات القصيرة والطويلة وثانيهما جواز التقارض بين ياء المد وواو المد ردفين وامتناع تقارض ألف المد مع إحداهما . وكان التزام الشعراء بهاتين القاعدتين عاما حتى فيما نظم باللهجات المحلية .

وتفضى بنا هذه المقدمة إلى نتيجتين محددتين :

أولاهما : أن الثنائية الكمية (طول ≠ قصر) هي ثنائية جوهرية تحكم عملية التبادل بين الحركات في القافية العربية ، وبذلك تبرز أهمية الاختبار الصوتي المعملي لهذه الثنائية . وبمثل هذه المقاربة يتحدد الأساس الفيزيقي (الأكوستيكي) الذي يحكم التناسب بين طرفي هذه الثنائية .

ثانيتهما : أن العلاقة بين الحركات القصيرة والطويلة في العربية لا تتحدد من

خلال العلاقة بين طرفي هذه الثنائية الكمية فحسب بل لابد أيضا من معالجة العلاقة بين هذه الثنائية الكمية والتصنيف الكيفي للحركات باستخدام الثنائيتين (سعة ≠ ضيق) و (أمامية ≠ خلفية) . وهو ما يمكن استنباطه استنباطا مباشرا ، ذلك ان أثر الثنائيتين الكيفيتين على تبادل الحركات في القافية لا يظهر إلا من خلال إعمال الثنائية الكمية .

غير أن التسليم بالفرضية الثانية سيفضي إلى مواجهة حادة مع مقولة يكاد يجمع اللغويون العرب من قدامى ومحدثين على صحتها حين حددوا السمة الفارقة بين الحركات القصيرة والطويلة بأنها كمية محض ، ذلكم هو صريح ما نص عليه ابن جني في سر الصناعة حين قال : « اعلم أن الحركات هي ابعاض حروف المد واللين[٧] » ، والدكتور أنيس حين يقرر في غير موضع من كتابيه الأصوات اللغوية وموسيقى الشعر صحة هذه المقولة في عبارات حاسمة لا تسمح باجتهاد أو تأويل من مثل قوله : « لا فرق بين الفتحة وألف المد إلا في الكمية . والفتحة إذا طالت صارت ألف مد وكذلك الضمة إذا طالت صارت واو مد والكسرة إذا طالت صارت ياء المد »[٨] .

وفي محاولة لاختبار هاتين الفرضيتين من منظور فيزيقي ــ إدراكي قمنا بعدد من التجارب والاختبارات المعملية عالجنا فيها قضية تبادل الحركات في القافية كماً وكيفاً وطبيعة العلاقة المعقدة التي تحكم هذا التبادل نرجو أن نتمكن من نشرها قريبا . وسنبدأ بهذا البحث الذي نمحضه لاثبات خلاصة ما توصلنا إليه من نتائج خاصة بالتناسب الزمني في الحركات العربية . وينتظم هذا البحث بعد هذا المدخل عدداً من النقاط هي على الترتيب :

١ ــ مادة التجربة
٢ ــ الجهاز المستخدم في القياس
٣ ــ نتائج القياس
٤ ــ تحليل النتائج

١ ــ مادة التجربة :

في هذه التجربة تم فحص ما يزيد على ثلاثمائة تحقق صوتي لكلمات أخذت من

موقع القافية في قراءة شعرية قام بها زميلان يحضران لدرجة الدكتوراه . وقد شمل القياس طول الحركة في كلمات احادية المقطع من النوع (ص ح ص) و (ص ح ح ص) وكلمات ثنائية المقطع من النوع (ص ح + ص ح ص) و (ص ح + ص ح ح ص) . (لبيان أنواع هذه المقاطع انظر الحاشية ١١) .

ولما كان بحث الخاصية الكيفية واقعا خارج إطار المشكلة التي التزمنا بمعالجتها في هذا البحث ، لذا لم نركز اهتمامنا على السمات الفارقة من حيث الكيف ، وكانت المادة المختارة عبارة عن تحققات فوناتيكية تتجلى فيها عناصر النظام الحركي في العربية المعاصرة وهي :

(أ) / a : /   / a /

(ب) / i : /   / i /

(جـ) / u : /   / u /

ثم أضفنا إلى هذه العناصر الأساسية الثلاثة حركتين طويلتين تردان في عدد كبير من اللهجات المعاصرة باعتبارهما تطورا تاريخيا للتتابعين ⁄ ay / و / aw / و هما :

(د) / e : / وهي ما شاعت تسميته بالكسرة الطويلة الممالة .

(هـ) / o : / وهي ما شاعت تسميته بالضمة الطويلة الممالة .

وكان الدافع إلى إضافة العنصرين الأخيرين على الرغم من انعدام مقابلهما القصير في نظام العربية المعاصرة هو مشاركتهما على المستوى الصوتي لا على المستوى الوظيفي — في تشكيل الخريطة المعقدة للعلاقات الكمية والكيفية بين الحركات القصيرة والطويلة على نحو نرجو أن نبين عنه في مبحث خاص نعالج فيه الفرضية الثانية التي أسلفنا الاشارة إليها .

وقد روعي في اختيار الحركات المقيسة أن تكون سابقة لأنواع الصوامت الرئيسة وهو الصوامت الاحتباسية stops والصوامت الاحتكاكية fricatives والصوامت الرنانة resonants وأن تغطي جميع المواقع الممكنة . لذا اضطررنا إلى وضع أبيات مستوفية للشروط المطلوبة عند عدم توافرها كما لجأنا إلى استخدام بعض الكلمات الخالية من المعنى واضعين إياها في سياق شعرى مغلف بالغموض وكان ذلك محدودا بالضرورة .

٢ ــ الجهاز المستخدم في القياس :

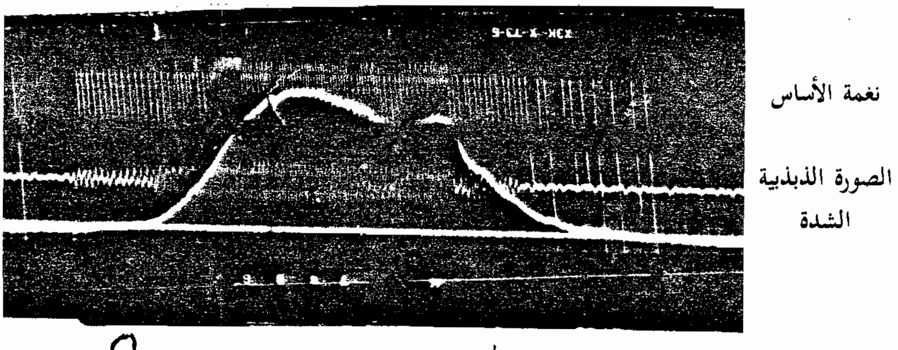
استخدمنا في إجراء التجارب جهاز راسم النغمات **intonograph** وهو جهاز يمكن توصيله بجهاز التسجيل الصوتي وتغذيته بالمادة المراد فحصها . ويستطيع راسم النغمات أن يقدم لنا تحليلا بالوسائل الاليكترونية للرسالة الصوتية إلى مستويات ثلاثة متزامنة[٩] هي :

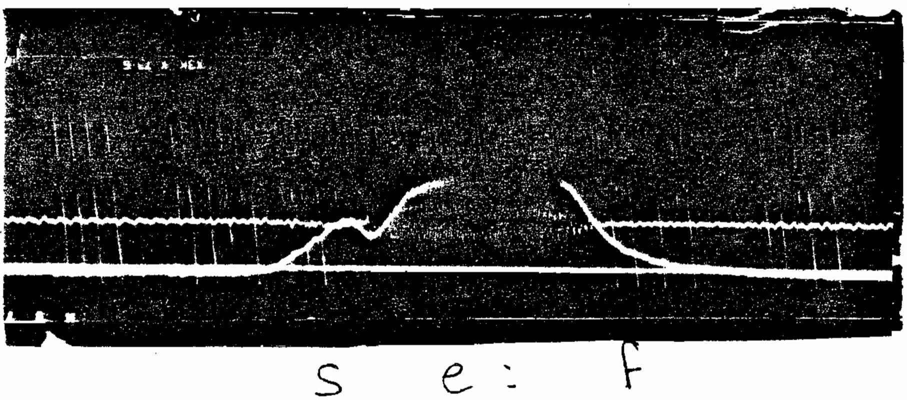
الأول : صورة ذبذبية (أو سيللوجرافية) للعينة .

الثاني : خطوط رأسية يمكن بتتبعها رصد ما يطرأ على نغمة الأساس **fundamental tone** من تغيرات تتحدد بها درجة الصوت **pitch** ويمكن من خلالها تحليل النغمات **tones** والتنغيم **intonation** حين يكون ذلك مرادا للباحث .

الثالث : خط يمثل توزيع الشدة **intensity** ــ وهي الخاصية التي ترتبط بالطاقة المبذولة ــ على العناصر المكونة للنطق .

ويتم تسجيل هذه المستويات الثلاثة المتزامنة على فيلم حساس يمكن أن يصل طوله إلى عشرات الامتار . أما نتائج القياس فيمكن التوصل إليها بتحميض الفيلم وقراءته على جهاز القراءة المعتاد بالمكتبات العامة **reader** حيث تنعكس الصورة على ورقة رسم بياني تحدد عليها الأبعاد الأفقية والرأسية المحدّدة للمستويات الثلاثة تحديدا دقيقا . ويستطيع الباحث ــ إذا أراد ــ أن يصور ما يشاء من الفيلم تصويرا فوتوغرافيا نورد مع هذا البحث نموذجين له : للكلمتين غير (**ge : r**) وسيف (**se : f**) بالكسرتين الطويلتين المماثلتين على الترتيب نحدد عليهما كيفية تسجيل الجهاز للمستويات التحليلية الثلاث :





ويتضح مما سبق أن ثمة مجالا كبيرا من المشكلات الصوتية التي يمكن أن يستخدم جهاز راسم النغمات في فحصها منها :

١ ـ الطول (أي الزمن أو المدة أو الكم) duration

٢ ـ النبر stress

٣ ـ التنغيم .

٤ ـ الارتباط بين الظواهر الثلاث السابقة (ويمكن رصده بملاحظة الخاصية التزامنية التي يوفرها الجهاز بتحليل العنصر الواحد على المستويات الثلاثة في زمن واحد) .

٣ ـ نتائج القياس :

تتضمن الجداول التالية قياسا لمتوسط زمن نطق الحركات في مائتي تحقق صوتي على التفصيل الوارد قرين كل جدول :

جدول ١

أنواع الصوامت	متوسط زمن النطق للحركات القصيرة المنبورة (بالمللى ثانية)					
	القارىء الأول			القارىء الثاني		
	á	í	ú	á	í	ú
قبل الصوامت الاحتباسية	٤٥	٤٥	٥٧,٥	٤٧,٥	٤٥	٤٨,٨
قبل الصوامت الاحتكاكية	٦٦,٤	٦٢,٣	٦٥,٥	٦٠	٥٦,٨	٥٦,٨
قبل الصوامت الرنانة	٨٨,٣	٧٨,٣	٩١,٧	٧٥	٦٨,٣	٧٣,٣
	٦٦,٦	٦١,٩	٧١,٦	٦٠,٨	٥٦,٧	٥٩,٦
المتوسـط	٦٦,٧			٥٩		

(١)

جدول ٢

أنواع الصوامت	متوسط زمن النطق للحركات الطويلة في كلمات آحادية المقطع — القارىء الأول				
	a :	i :	u :	e :	o :
قبل الصوامت الاحتباسية	٩١,٥	٩٢,٥	٩٨,٨	٨٦,٣	٩١,٣
قبل الصوامت الاحتكاكية	١٢٥,٥	١٢٢,٥	١٢٥,٩	١٢٠,٤	١١٨
قبل الصوامت الرنانة	١٣١,٧	١٤٠	١٣٨,٤	١٢١,٧	١٢٠
المتوسط	١١٦,٢	١١٨,٣	١٢١	١٠٩,٥	١٠٩,٨
			١١٥		

(ب)

جدول ٢

أنواع الصوامت	متوسط زمن النطق للحركات الطويلة (بالمللي ثانية في كلمات آحادية المقطع)				
	القارىء الثاني				
	a :	i :	u :	e :	o :
قبل الصوامت الاحتباسية	٨٧,٥	٩١,٣	٩٨,٨	٩٢,٥	٨٦,٥
قبل الصوامت الاحتكاكية	١١٠,٢	١١٦,٨	١٢٢,٥	١١٥,٤	١١٠
قبل الصوامت الرنانة	١٣١,٧	١٣٨,٣	١٢٥	١٣١,٧	١٢٨,٣
	١٠٩,٨	١١٥,٥	١١٥,٤	١١٣,٢	١٠٨,٣
المتوسط			١١٢,٤		

جدول ٣

أنواع الصوامت	متوسط زمن النطق للحركات القصيرة غير المنبورة					
	القارىء الأول			القارىء الثاني		
	+ a	+ i	+ u	+ a	+ i	+ u
قبل الصوامت الاحتباسية	٣٧,٥	٣٥	٣٥	٢٧,٥	٢٦,٤	٣١
قبل الصوامت الاحتكاكية	٣٤,٧	٣٤,١	٣٦,١	٣٠	٢٨,٢	٢٩,٣
قبل الصوامت الرنانة	٣٥	٣٣,٣	٣٦,٦	٢٦,٦	٢٦,٦	٣٠
المتوسط	٣٥,٧	٣٤,١	٣٥,٩	٢٨	٢٧,١	٣٠,١
المتوسط		٣٥,٢			٢٩,١	

جدول ٤

الحركة	نوع الكلمة	مقارنة متوسط زمن نطق الحركات الطويلة في الكلمات آحادية المقطع وثنائية المقطع (مللي ثانية)	
		القارىء الأول	لقارىء الثاني
a :	آحادية	١١٦,٢	١٠٩,٨
	ثنائية	١٠٤,٥	١٠١,٦
i:	آحادية	١١٨,٣	١١٥,٥
	ثنائية	١٠٨,٥	١٠٤,٥
u :	أحادية	١٢١	١١٥,٤
	ثنائية	١١٥,٤	١١٠
e :	أحادية	١٠٩,٥	١١٣,٢
	ثنائية	١١٠,٨	١٠٤,٥
o :	أحادية	١٠٩,٨	١٠٨,٣
	ثنائية	١٠٥,٣	١٠١,٤

جدول ٥

أنواع الصوامت	مقارنة متوسط زمن نطق الحركات القصيرة المنبورة وغير المنبـــورة											
	القارىء الأول						القارىء الثانى					
	a		i		u		a		i		u	
	منبور	غير منبور	منبور	غير منبور	منبور	غير منبور	منبور	غير منبور	منبور	غير منبور	منبور	غير منبور
قبل الصوامت الاحتباسية	٤٥	٣٧,٥	٤٥	٣٥	٥٧,٥	٣٥	٤٧,٥	٢٧,٥	٤٥	٢٦,٤	٤٨,٨	٣١
قبل الصوامت الاحتكاكية	٦٦,٤	٣٤,٧	٦٢,٣	٣٤,١	٦٥,٥	٣٦,١	٦٠	٣٠	٥٦,٨	٢٨,٨	٥٦,٨	٢٩,٣
قبل الصوامت الرنانة	٨٨,٣	٣٥	٧٨,٣	٣٣,٣	٩١,٧	٣٦,٦	٧٥	٢٦,٦	٦٨,٣	٢٦,٦	٧٣,٣	٣٠

مقارنة المتوسط العام لزمن نطق الحركات المنبورة القصيرة
والحركات الطويلة فى الكلمات احادية المقطع
(ص حَ ص) . (ص ح ح ص)

الحـــــركات		متوسط زمن النطق القارىء الأول	(مللى ثانيـــة) القارىء الثانى
١	á	٦٦,٦	٦٠,٨
	a :	١٠٤,٥	١٠٩,٨
٢	í	٦١,٩	٥٦,٧
	i :	١١٨,٣	١١٥,٥
٣	ú	٧١,٦	٥٩,٦
	u :	١٢١	١١٥,٤
٤	e :	١٠٩,٥	١١٣,٢
٥	o :	١٠٩,٨	١٠٨,٣
متوسط زمن نطق الحركات القصيرة المنبورة		٦٦,٧	٥٩
متوسط زمن نطق الحركات الطويلة		١١٢,٦	١١٢,٤
النســـــبة		٠,٦	٠,٥

جدول ٧

مقارنة متوسط زمن النطق فى الثنائية قصير غير منبور طويل (فى كلمات ثنائية المقطع)
(بالمللى ثانية)

أنواع الصوامت	القارىء الأول						القارىء الثانى					
	+ a	+ a	+ i	+ i	+ u	+ u	+ a	+ a	+ i	+ i	+ u	+ u
قبل الصوامت الاجتباسية	٣٧,٥	١٠١,٣	٣٥	٩٣,٥	٣٥	١٠٢	٢٧,٥	٩٢,٥	٢٥	١٠٢,٥	٣٢,٥	١٠٧,٥
قبل الصوامت الاحتكاكية	٣٤,٥٤	٩٥,٥	٣٤,٥٤	١٠٢,٧	٣٥,٤٥	١١١	٣٠	١١٠	٢٨,١٨	١٠٧,٥	٣٠	١١٣,٦٣
قبل الصوامت الرنانـة	٣٥	١١١,٦	٣٣,٣	١٢٠	٣٥	١٢٣,٣	٢٦,٦٦	١١١,٦٦	٢٦,٦٦	١١٣,٣	٣٠	١٢٥

٤ ــ تحليل النتائج :

يمكن بناء على المعطيات الواردة في الجدولين ١ ، ٢ أن نصل إلى نتيجة فحواها أن ثنائية (طويل ≠ قصير) في الحركات العربية ــ إذا افترضنا ثبات الشروط الأخرى ــ محكومة بنوعية الصامت اللاحق من حيث كونه احتباسا أو احتكاكيا أو رنانا . غير أننا لا نستطيع الوصول إلى النتيجة نفسها عند فحص الحركات القصيرة غير المنبورة في الكلمات ثنائية المقطع من النوع (ص ح + ص ح ص) حيث يتأرجح متوسط زمن النطق حول نقطة معينة عند القارىء الواحد . وتظهر هذه النتيجة واضحة بتأمل الجدول ٣ .

وقد قدمنا أن النقطة المحورية في هذا البحث هي دراسة التناسب الزمني بين الحركات القصيرة والطويلة العربية من واقع المادة المدروسة . ومن المتوقع في هذا الصدد أن يزيد متوسط طول الحركات الطويلة في الكلمات آحادية المقطع (ص ح ح ص) على نظائرها في الكلمات ثنائية المقطع (ص ح + ص ح ح ص) مع ملاحظة أن الحركتين في هاتين الموقعتين يقع عليهما النبر (أنظر الجدول ٤) .

ويظل اختلاف طول الحركة في الكلمة الآحادية المقطع عن نظرتها في الكلمة ثنائية المقطع خاصية مميزة أيضا للحركات القصيرة بالشروط نفسها . وإن كان طول الحركة في هذا الموقع يتأثر تأثرا مباشرا بانتقال موضع النبر الذي يفضى بنا لا إلى ثنائية (طويل ≠ قصير) فحسب بل إلى ثنائية أخرى هي (منبور ≠ غير منبور) .

وتتطلب معالجة التناسب الزمني بين الحركات القصيرة والطويلة في القافية العربية ــ آخذتين في الاعتبار جميع العوامل التي سبقت الاشارة إليها ــ أن نبدأ بحل مشكلة أساسية يعد حلها مدخلا ضروريا لدراسة فكرة التناسب الزمني . ونعني بهذه المشكلة تحديد طرفي التقابل في أنواع المقاطع المدروسة . وقد صغنا فرضيتنا في هذا الباب على النحو التالي :

١ ــ ص ح ص ≠ ص ح ح ص

٢ ــ ص ح + ص ج ص = ص ح + ص ح ح ص

وصحيح أن التقابل بين الحركة القصيرة غير المنبورة والحركة الطويلة في الكلمة ثنائية المقطع وهو ما صغناه في (٢) يعد تقابلا بين حركة قصيرة غير منبورة وحركة طويلة منبورة . إلا أن وضعية التقابل تستمد مشروعيتها من حقيقة أخرى مؤداها أن تعدد التشكيل المقطعي للكلمة يخفف من تأثير النبر على طول الحركة . وهذه فرضية أخرى رجح صوابها في نظرنا من مجموعة من التجارب أجريت في سياق آخر ويمكن التثبت من صحتها بمراجعة معطيات الجدول ٤ .

وعلى أساس من هذا التحديد توصل البحث إلى نتائج تتعلق بالمقارنة بين الحركات القصيرة والطويلة ضمناها الجداول السابقة على النحو التالي :

١ ــ مقارنة متوسط زمن النطق للحركات القصيرة في الثنائية (منبور ≠ غير منبور) في (الجدول ٥) .

٢ ــ مقارنة متوسط زمن النطق للحركات القصيرة والطويلة في الثنائية (قصير منبور ≠ طويل في كلمة آحادية المقطع) في (الجدول ٦) .

٣ ــ مقارنة متوسط زمن النطق للحركات القصيرة والطويلة في الثنائية (قصير غير منبور ≠ طويل في كلمات ثنائية المقطع) في (الجدول ٧)

وعلى أساس من معطيات هذه الجداول أمكن الوصول إلى تصور متكامل لعلاقات التناسب بين الحركات القصيرة والطويلة في القافية العربية نصوغه فيما يلي :

أولا : التناسب الزمني بين الحركات القصيرة (منبور ≠ غير منبور) .

١ ــ تحققات / a / ≠ / +a /

القارىء الأول ٠,٥٤

القارىء الثاني ٠,٤٦

٢ ــ تحققات / i / ≠ / +i /

القارىء الأول ٠,٥٤

القارىء الثاني ٠,٤٨

٣ ــ تحققات / ú / ≠ / +u

القارىء الأول ٠,٥

القارىء الثاني ٠,٥

ثانيا : التناسب الزمني (قصير منبور ≠ طويل في كلمات آحادية المقطع)

١ ــ تحققات / á / ≠ / a : /

القارىء الأول ٠,٦٤

القارىء الثاني ٠,٥٥

٢ ــ تحققات / i / ≠ / i : /

القارىء الأول ٠,٥٢

القارىء الثاني ٠,٤٩

٣ ــ تحققات / ú / ≠ / u : /

القارىء الأول ٠,٥٩

القارىء الثاني ٠,٥٢

ثالثا : التناسب الزمنى (قصير غير منبور ≠ طويل في كلمات ثنائية المقطع)

١ ــ تحققات / +a / / +a : /

القارىء الأول ٠,٢٥

القارىء الثاني ٠,٢٧

٢ ــ تحققات / +i / ≠ / +i : /

القارىء الأول ٠,٣٣

القارىء الثاني ٠,٢٥

٣ ــ تحققات / +u / ≠ / +u : /

القارىء الأول ٠,٣١

القارىء الثاني ٠,٢٧

ويمكن بناء على ما سبق ــ وضع التناسب الزمني في سلم تدريجي تصاعدي للقيم الزمنية على النحو التالي :

١ ــ قصير غير منبور
٢ ــ قصير منبور
٣ ــ طويل منبور (في كلمات ثنائية المقطع)
٤ ــ طويل منبور (في كلمات آحادية المقطع)

كما يمكن استنباط النتائج الآتية :

(أ) التناسب الزمني بين (٢) و (١) = ١ : ٢
(ب) التناسب الزمني بين (٢) و (٤) ⩽ ١ : ٢
(جـ) التناسب الزمني بين (١) و (٣) ≥ ١ : ٣

من كل ما سبق نصل إلى تحديد لخريطة العلاقات الفيزيقية (الاكوستيكية) بين الحركات القصيرة والطويلة في العربية . ولنحاول الآن أن نرصد الكيفية التي تظهر بها هذه العلاقة في أنواع القافية العربية ، وهو ما يمكن بمتابعة أنماط التقفية سواء في الشعر القديم أو المعاصر (نعني القائم على وحدة القافية) أن نصوغه في الملاحظات الآتية :

١ ــ تبادل الحركات القصيرة غير المنبورة بين بعضها في الموقعية (+ ص ح ص) ممكن مطلقا .
٢ ــ تبــادل الحركات القصيرة والطويلة ممتنع مطلقا .
٣ ــ تتبادل الحركات القصيرة المنبورة وغير المنبورة ممكن نظريا ومحدود الاستعمال عمليا . وباستخدام المعطيات الأكوستيكية في تفسير الواقع الشعري يمكن أن نقول ان التناسب الزمني غير المسموح بتبادله في الحركات يتأرجح بين ١ : ٢ ، ١ : ٣ .

على أن اللافت للنظر أن التناسب الزمني في الثنائية (قصير منبور ≠ قصير غير منبور) يصل إلى ١ : ٢ . ومع ذلك فقد استخدمه الشعراء ولم يعترض عليه العروضيون . وهذه الملاحظة تحتاج إلى شيء من المعالجة التفصيلية .

نلاحظ ابتداء في هذا الصدد أن مثل هذا التبادل في القافية نادر الاستعمال ويقدر الدكتور أنيس شيوعها بنسبة ١٪ من صور الروي المقيد[١٠] . ويفسر هذا بضآلة نسبة شيوع المقطع (ص ح ص ص) و (ص حَ ص) بالنسبة لغيره من أنواع المقاطع[١١] .

وترد هنا ملاحظة ثانية لها قيمتها ، ذلك أن بعض النقاد يعبر — من وجهة ذوقية — عن عدم ارتياحه لهذا النوع من التقفية . وقد عبر عن ذلك الدكتور طه حسين في نقده لبيت الشاعر المهجرى (إيليا أبو ماضي) في قصيدته « الطين » :

لك في عالم النهار أمان ورؤى والظلام فوقك ممتد

إذ يقول في كتابه حديث الأربعاء : « هذه الدال المدغمة لا تطاق »[١٢] .

غير أننا نلاحظ أيضا أن درجة الاختلاف في الزمن بين المقاطع القصيره المنبورة وغير المنبورة يتضاءل بدرجة كبيرة إذا ما وردت في كلمات متعددة المقاطع ، ومن ثم يكتسب التقابل صفة التنويع المرغوب دون أن يصل إلى درجة الاختلاف الذي يصادم الذوق .

ويبقى لنا في النهاية مسألة أخيرة هامة نختم بها هذا البحث ونصوغها في السؤال الآتي : لماذا يسمح العروضيون والشعراء بتبادل الحركة القصيرة المنبورة مع الحركة القصيرة غير المنبورة في قافية واحدة دون الحركة الطويلة إذا كان التناسب الزمني بينهما — كما تظهرنا عليه جداول هذا البحث — يمثل مركزا وسطا في السلم التدريجي للقيم بين هذين النوعين من المقاطع ؟

من الصعب تقديم اجابة حاسمة على أي مشكلة تتصل بالنبر في الشعر العربي القديم ، ذلك أن الفارق الفيزيقي الادراكي بين الحركة المنبورة وغير المنبورة يبرز بوضوح عند تحكم النطق المعاصر . ومع ذلك فالتراث اللغوي العربي يخلو من أي ملاحظات ذات قيمة مباشرة في تحديد النبر وأشكاله في النطق القديم .

هل يمكن القول بأن قبول الشعر المعاصر القائم على وحدة القافية لهذا النمط هو مجرد اتباع للتقليد القديم واستمرار لظاهرة تستعصى ظروفها وقوانين إعمالها على

التحديد ؟ .. إن هذا القول في جانب منه صحيح ، ولكنه لا يقدم تفسيرا مقنعا لظاهرة وردت في الشعر القديم قبل عصر الجمع والتدوين واستمرت بعده إلى أن ورثها المحدثون . لقد وجدت في قصيدة طرفة التي مطلعها :

أصحوت اليوم أم شاقتك هر ومن الحب جنون مستمر

ثم وجدنا لها شواهد ــ على سبيل المثال ــ عند حافظ في مرثيته لمحمد فريد وعند شوقي في قصائده عن أبي الهول وانتحار الطلبة ومصرع اللورد كتشنر ومحمد علي بك الكبير .

والذي يبدو لنا ــ في تشخيص تقارض الحركات القصيرة المنبورة وغير المنبورة قبل الروي المقيد ــ أن بعض أشكال التقفية لا تتحدد معاييرها بالعامل الأكوستيكي وحده ، بل إن هذا العامل يتراجع في بعض الاحايين عن مكان الصدارة بالنسبة لعوامل أخرى . إن الكلمة كما تتحدد بمكوناتها الفيزيقية المدركة تتحدد أيضا بعلاقتها بغيرها من الكلمات التي تتشكل من الجذر نفسه ، وبالجدول التصريفي التي تنتمي إليه ، وبالمظهر الكتابي الذي تبدو عليه حال تدوينها . وقد ثبت أن هذا الاعتبار له ما يناظره في نظم التقفية عند أمم كثيرة وفي العربية على وجه الخصوص ، حتى أن بعض الباحثين يرى أن تثبيت التدوين لأنماط القافية قد انتقل أثره من العربية إلى لغات إسلامية أخرى كالفارسية ، وأنه أثر كذلك ــ عن طريق الفارسية ــ في الشعر التركي حيث أصبح تماثل الرسم الكتابي في بعض الأحيان الغلبة في تشكيل القافية على القيمة النطقية الفعلية للأصوات الداخلة في تكوينها[١٤]

وقد عقد ابن رشيق في كتابه (العمدة) باباً خاصا لبيان « أحكام القوافي في الخط » يظهر منه الحرص الشديد على تماثل صورة القافية في الخط حتى وإن كان في ذلك مخالفة لقواعد الكتابة التقليدية المعروفة بصرامتها ودقتها فيقول : « وإن كان في قوافي القصيدة ما يكتب بالياء وما يكتب بالألف كتبا جميعا بالألف لتستوي القوافي وتشتبه صورتها في الخط »[١٥] .

من ثم كان على الباحث ــ وخاصة في الشعر المعاصر حيث يحتمل الادراك البصري للشعر من خلال الصفحة المطبوعة مكانة لا تقل عن الادراك السمعي من

خلال الانشاد بل ربما تتجاوزه أحيانا ــ نقول : كان على الباحث أن يولي أحكام القوافي في الخط كما سماها ابن رشيق عناية خاصة إذا أراد لمعالجته أن تكون مستوفية مستقصية .

ولا ينبغي أن يفضي بنا هذا التقرير إلى التقليل من أهمية العامل الأكوستيكي ، ذلك أن الرسم الكتابي إنما يمارس تأثيره على الملتقى لا بواسطة الرؤية البصرية فحسب ، بل من خلال ما نسميه بالنطق الضمنى (أو النطق بالقوة ، أو القراءة الصامتة) فالتكوين الأكوستيكي معتبر بشكل من الأشكال على أي حال .

غير أن اعتبار الفارق بين المنطوق والمدون في القافية هو ــ في رأينا ــ الأصل الذي يتفرع عنه كل خلاف في نظم التقفية بين الشعر المكتوب بالفصحى وما ينظم باللهجات المحلية سواء كان لمؤلفين معروفين ، أو كان مما ينتقل على ألسنة الناس بالمشافهة والرواية بل إنه في رأينا التفسير المقبول لكل ما سمي بعيوب القافية في النظرية العروضية التقليدية . إن ما يسميه العروضيون عيوب القافية هي ــ في جوهرها ــ ظواهر مطردة محكومة بقوانين المنطوق والمسموع من الكلام ، وهي قابلة للرصد والمعايرة من هذا المنظور ، وإنما عدت عيبا بالقياس إلى شكل (المعلقة) أو (القصيدة) وهو الشكل الذي حظي بالاحترام وما يزال على مدى تاريخ الشعر العربي كله .

وهكذا تستبين لنا حدود العلاقات الأكوستيكية التي تحكم الثنائية الكمية من الحركات وانعكاسها في القافية وتبقى لنا مشكلة أخرى وثيقة الصلة بهذه الثنائية ونعنى بها الثنائيتين (سعة $\neq$ ضيق) و (أمامية $\neq$ خلفية) ولعلنا نعود إليها في بحث آخر إن شاء الله .

الحواشى والمراجع

١ ــ عولج تعريف المقطع بطرق ودرجات مختلفة من حيث التحصيل والتفصيل في كثير من مصنفات الدرس اللغوي . وللقارىء أن يراجع الفصول الخاصة بالمقطع والنبر في الأصوات اللغوية للدكتور أنيس ومناهج البحث في اللغة للدكتور تمام حسان وأصوات اللغة للدكتور عبد الرحمن أيوب ودراسة السمع والكلام لصاحب هذا البحث .

٢ ــ راجع في ذلك كتاب العين للخليل تحقيق الدكتور عبد الله درويش ١/٦٤ ــ ٦٥ . وأيضا كتابي الدكتور كمال بشر : علم الأصوات ٩٧ ــ ٩٩ ودراسات في علم اللغة القسم الأول ١٠٩ ــ ١١١ .

٣ ــ يطلق على حروف المد أحيانا حروف اللين ولكنها تشترك في هذه التسمية مع الواو والياء المتحملتين للحركة .

٤ ــ حاشية الدمنهورى ، المطبعة الميمنية القاهرة ١٣٠٧ هـ . ص ٢٠ .

٥ ــ الراضي شرح تحفة الخليل ، بغداد ١٩٦١ ص ٣٦٢ .

٦ ــ حاشية الدمنهورى ١٠٣ .

٧ ــ انظر في التعليق على رأي ابن جني د. كمال بشر علم الأصوات ، القاهرة ١٩٧١ ص ١٠٤ .

٨ ــ انظر د. أنيس الأصوات اللغوية ط ٣ ، ١٩٦١ ص ١٠٣ ــ ١٠٥ وقد كرر هذا الرأي في غير موضع من كتاب موسيقى الشعر . وانظر أيضا د. تمام حسان ، مناهج البحث في اللغة ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٠٤ .

٩ ــ للتمييز بين التصوير الذبذبي والتصوير الطيفي للكلام : أنظر : لصاحب هذا البحث « دراسة السمع والكلام » القاهرة ١٩٨٠ ص ٥٩ ــ ٦٥ ، وأيضا الفصل الثالث من كتاب أرنست بوجرام « مدخل إلى التصوير الطيفي للكلام » وقد ترجمه كاتب البحث ونشر بالقاهرة عام ١٩٧٨ .

١٠ ــ موسيقى الشعر ط ٣ القاهرة ، ١٩٦٥ .

١١ ــ درج أكثر الدارسين على التسوية بين كلمات مثل « عصر ــ سهل ــ صعب » (عند الوقف بالسكون) ، والكلمات ــ شك ، رد ، جد ــ باعتبارهما ينتميان إلى صورة مقطعية واحدة هي (ص ح ص ص) ولكن هذه الدراسة تميز بين النوعين على أسس فوناتيكية . وتخص الطائفة الأولى بالصورة (ص ح ص ص) أما الطائفة الثانية فتعتبرها من النوع (ص حَ ص) المنبور . حيث لا مسوغ فوناتيكيا لاعتبار المقطع في هذه الحال مزدوج الاغلاق .

وقد ثبت من التجارب المعملية التي أجريناها على عينات من النوعين (ص ح ص) المنبور وغير المنبور أن الفارق بينهما يكمن في طول الحركة نواة المقطع وليس في طول الصامت المغلق للمقطع . ويلاحظ أن د. س هاريل يقول بهذا التصنيف حتى على المستوى الوظيفي أيضا . انظر :

R. S. Harrell, ''Alinguistic Analysis of Egyptian Radio Arabic'' in ''Contributions to Arabic Linguistics'' Ed. by Ferguson, Harvard Univ. Press', 1960, pp. 227 — 31.

أما مرجعنا في الاحصائية فهو كتاب :

Tomiche, ''Le Parler Arabe du Caire''. Mouton, 1964, P. 78

١٢ ــ حديث الأربعاء ١٩٩/٣ القاهرة بدون تاريخ .

١٣ ــ هذا ما أكدته الباحثة ستيليفيا في مقال لها عن « نظرية القافية العربية ــ الفارسية وأثرها على الشعر التركي » وقد أنجزنا ترجمة له هي الآن قيد النشر مع مجموعة بحوث أخرى مترجمة في قضايا التحليل الصوتي لبنية النص الشعري .

١٤ ــ العمدة : تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٥ ، ٣١٠/٢ .